المبحث الثاني

عالمية القرآن عقلا ونقلا لفظا ومعنى

(حضارة ورسالة)

obeikandl.com

obeikandl.com

فقد كان القرآن أكثر شمولا وتفصيلا من الكتابين السابقين... حوى القرآن كل شيء وحوى جميع القوانين إذ أنه خاتم الكتب السماوية.

واشنجتون إير فنج

١- عالمية القرآن حضارة ورسالة

لا يغيبن عن بال القارئ أن قضية عالمية القرآن من أهم القضايا التي يتحتم اليوم على علماء المسلمين المعاصرين أن يبينوها و يذكروا وجهة الصواب فيها بالبراهين العقلية والحجج النقلية والأدلة الناصعة لأنه قد خرج في الأوساط المسلمة-في مختلف بلاد العالم الإسلامي- في هذا القرن من ينكرون عالمية القرآن بزعم تاريخانيته عدا المستشرقين. مع أننا نحن معاشر المسلمين سلفا وخلفا منذ أن بعث الله هذا الكتاب إلى يومنا هذا نعتقد جازما انطلاقا من نصوص كثيرة وأدلة ناصعة وحجج قاهرة وبراهين باهرة أن القرآن هو كتاب الله الذي خاطب به البشرية جمعاء إلى يوم القيامة بلا تقيد بزمان دون زمان أو مكان دون مكان أو جنس دون جنس أو طبقة دون طبقة ؛ خاطبهم جميعا بما يسعدهم في دنياهم وأخراهم من العقائد المقدسة التي تليق بعظمة الخالق العظيم والعبادات المعظّمة لجلال الفاطر الحكيم التي تليق بقدسه وكبريائه إلى تلك المعاني النبيلة والأحكام الرفيعة والأخلاق الفاضلة والتعاليم العالية والمبادئ السامية التي يسمو بها البشر روحا ونفسا ومادة ومعنى وفردا

ومجتمعا، ويتطور المجتمع بما تخفيه في أنفسها تلك المبادئ من الطاقات المحركة علما ومعرفة وتفكيرا وفلسفة فهو وحده القادر على تقديم بديل حضاري متضمن لأفضل الأسس لأكرم حضارة عالمية إنسانية تجاه ما ابتليت به الإنسانية من الحضارة الغربية التي لم تستطع أن تسعد الإنسان فردا وجماعة في سوى جوانب طفيفة مادية يلوكها أحناك المادة ويقيئها معدة الروح والمعنى فهي بدورها هذا لا تكفي وحدها في إسعاد البشر.(وقد أشرنا إلى جل ذلك قبل)

عالمية القرآن إذاً من أوسع القضايا القرآنية مساحة وتغطية ولكن لا يسعنا- ونحن التزمنا الإيجاز في حدود هذه الرسالة القصيرة- إلا إشارات خفيفة لطيفة إلى هذا الموضوع الهام لعل الله يقيد له في مستقبل الأيام من رجالات العلم من يعطيه حقه.

وقبل عرض موضوع عالمية القرآن باعتبار مضمونه ومحتواه نرى أن نقدم بكلمة مختصرة عن التاريخانية التي هي ساقتنا إلى تناول هذا الموضوع.

إن مسئلة تاريخانية* القرآن مسئلة طلعت في زي الحداثة بزيها المزخرف المنمق من تحت قرن شيطان الاستشراق فتلقفها مقلدوهم وعملائهم الفكرية من مثقفي المسلمين ولاكوها بألسنتهم عامدا بعضهم

---

*) إن التاريخانية نزعة فلسفية يتخذ منها فلاسفة الغرب نظرة فلسفية إلى بعض الأمور لا صلة لها مع عالمية القرآن ولكن للانبهار البالغ عند كثير من أبناء بلاد العالم الإسلامي لكل ما يهب ويدب من الغرب طبقوها على القرآن وجعلوها نظرة معاكسة لعالمية القرآن.

إلى ما تأتي به من العاقبة السيئة وغير شاعر البعض الآخر منهم بمغبتها المشؤومة ونتيجتها المزؤومة[1] التي أقلها زحزحة عقيدة بعض غير قليل من المسلمين وإضعاف ثقتهم بالقرآن -وهو الهدف الفريد الذي يسعى إليه بكدح بالغ المستشرقون وأذنابهم- لأنها لا تتوائم مع العقيدة الإسلامية الحقة لا في قليل ولا كثير فهي تتنافى مع علم الله المطلق و تتنافى مع حقيقة خلود رسالة القرآن وأحكامه مدى العصور إلى أن يرث الله الأرض و من عليها.

وأهم أهدافها التي خطها شيطان الاستشراق ضمن خطة مزورة مغطاة بحلل العلمية والموضوعية(؟!) محلاة بحلي التفكير الحر السليم (؟!) أهم أهدافها هو الإبانة - بعد زمن غير بعيد ريثما استقرت الفكرة في أوساط المسلمين- عن أن القرآن عتق مع الزمن وأبلاه كر الليالي وأخلقه مرّ العصور حيث كان كتابا تاريخانيا خاطب كتلة محدودة من البشر في قطاع خاص من التاريخ والزمن وكان في مستطاعه في تلك الأزمنة الابتدائية المحددة تقديم حلول نافعة لتلك المجتمعات الابتدائية الخاصة في ذلك القطاع الخاص. وأما بعد ما حدث ما حدث من ثورات عظيمة في معظم جوانب حياة الإنسان الفردية والاجتماعية والإدارية والسياسية والاقتصادية والفكرية وبعد ما حدث من انقلابات عجيبة في الحريات والكرامات البشرية والحدود والحقوق الإنسانية وما إليها من الجوانب فلم يبق القرآن بدوره التاريخاني قادرا على الإيفاء بتقديم

---

١) المزؤومة: المذعورة، المخوفة.

حلول فاضلة صالحة لتلك المجتمعات الراقية المتطورة في جميع جوانب حياتها! فإذاً الهدف اللئيم الأثيم لهذه الخطة الغير الرشيدة هو ما يتوقعه جميع تلك الجهات من العلمانيين والليبراليين والماسونيين والصهيونيين وأذناب الغربيين الساهرين كلهم على التخطيط العالمي لإقصاء القرآن بدوره الفعال من جميع نواحي الحياة، الهدف هو أن يجعل رسالة الإسلام والقرآن عبارة عن أمور أخلاقية وجدانية، في دائرة ضيقة لا صلة لها بتوجيه الحياة بمعناها الشمولي وتسييرها أصلا إنما هي بين المرء وربه لا غير! ودورها إنما يبرز من خلال العبادات المؤداة في المعابد فقط فإذاً المعادلة الجديدة التي اكتشفها هؤلاء عن الإسلام: "إن المساجد والمعابد لله والأسواق والبرلمان لنا" وهي شبيهة بتلك المعادلة التي عبر بها النصارى عن دينهم: "أعطوا ما لقيصر لقيصر وأعطوا ما لله لله".

وهذه الصورة الشوهاء المختلقة عن رسالة القرآن هي التي يمليها الاستعمار الغربي والتنصير العالمي والصهيونية الحاقدة على عملائها الخونة وأذنابهم المرذولة في البلاد الإسلامية كي يذيعوها عن الإسلام وتعاليمه السمحة وهي نفس كيان النصرانية التي بائت بالفشل والبوار لا في الإصلاح الجماعي فقط بل حتى في الحفاظ على وجودها الذاتي أيضا في صميم بلادها وكفى ذلا وهوانا لها ولأبنائها!

وخلال تناولنا لموضوع عالمية القرآن نقدم الاتجاه الاستدلالي على العرض المضموني فإن الناحية الاستدلالية أولى وأهم من ناحية علاقتها الوثيقة بصلب الموضوع.

٢- عالمية القرآن من الناحية الاستدلالية

تعلمنا نحن المسلمين من القرآن منهجية الاستدلال الفذة التي تفرد القرآن بتعليمها بتلك الصورة المتكاملة المنطقية. إن القرآن بدأ في أولى آياته المنزلة بغار حراء والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يعاني من برحاء الوحي حيث لم يتعود على طبيعته بعدُ بدأ يعلم الناس الاحتجاج ويرشدهم إلى الاستدلال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[1] ولم ينقطع القرآن عن تلك المنهجية ولم يهملها أبدا عبر جميع آياته المنزلة سواء عبر ما نزل بمكة وهو يحارب الشرك ويهدم أباطيله جمعاء ويفتح للإنسانية باب التفكير على مصراعيه ويروض العقل على التفكير والمحاكمة العقلية السديدة بحكمة رائعة وحذق فائق، ويدعو الناس إليه بإلحاح وإصرار ويصوغ للإنسان عقلية منطقية واعية من جديد، وسواء عبر ما نزل بالمدينة وهو ينشئ الحكومة الإسلامية الفتية الجديدة ويضع اللبنات الأساسية لها ويزرع مع ما سلف نزوله في القرآن المكي في أرض الإنسانية بذور تلك الحضارة الرشيدة. فالتزام القرآن الشديد بمنهجية الاستدلال يحتم علينا نحن المسلمين أن نستدل نحن أيضا على ما نطرحه من القضايا والأفكار. وهو السبيل الأقوم لحفظ العقل عن التخبط والوقوع في المهاوي والمهالك فإن العقل إذا صاحبه هدي الوحي عبر مسيرته أمن من الردى والهلاك وأما إذاما

---

١) العلق، ٩٦/١-٥.

استغنى بنفسه وانتهج طريقه وحيدا بلا دليل من الوحي وتعاليم السماء فمغبة جل أعماله التفكيرية وغيرها تكون خطيرة مهلكة لحد أكبر ولا تؤمن عواقبها السيئة كما تجد ذلك في الفلاسفة ومن انتهج نهجهم.

فالحديث عن عالمية القرآن من أهم القضايا اللاصقة بالقرآن لاسيما في عصرنا هذا فطرح القضية على عواهنها من غير استدلال واحتجاج لا يأتي بشيء يؤنس له سوى أن يكون من باب الأمنيات أو الوديات فالاهتمام بالأمر يوجب الاستدلال له من ناحيتي العقل والنقل فلنذكر القضية مستدلين عليها من كلتا الناحيتين، بينما لا ننسى أن نذكر القارئ مرة أخرى أن تناولنا لموضوع عالمية القرآن عبر هذا البحث الموجز ليس من باب استقصاء الشيء والإتيان على جميع جوانبه بل إنما هو من باب الإلمام وتزويد القارئ ببعض المعلومات التمهيدية للموضوع تنبيها وتذكيرا وتركيزا وتبكيرا. والله ولي كل خير ونعمة وهو المولي لكل توفيق وحكمة:

أ- عالمية القرآن من الناحية العقلية

الاستدلال العقلي تحرك العقل الهادف لمعرفة شيء ما وسيره في المعقولات كي يأتي ببعض الوسائل الفكرية التي يصل بها إلى ما يستهدفه من ذلك التحرك والسير أو بكلمة أخرى أكثر وضوحا هو أن يستدل العقل ببعض الأمور على معرفة شيء ما. وليس كل شيء يكون وسيلة لمعرفة كل شيء بل لكلٍ ما يقاربه ويكون له صلة به فلو

استدللت على المسائل الطبية مثلا ببعض من العلوم الاجتماعية لم تنجح وذهب سعيك سدى أو احتججت على الأمور الفقهية ببعض من المسائل البيولوجية ما حصلت على أية نتيجة طيبة شهية وذهب احتجاجك أدراج الرياح. فانطلاقا من هذا حينما نحاول أن نستدل استدلالا عقليا على عالمية القرآن نستدل ألبتة بتلك الأمور التي تدخل في عالم القرآن ولها صلة به وملابسة قوية له أما لو ذهبنا نستدل على ذلك بالأمور الفلسفية فذاك وإن رضي به بعض من المتفلسفين لكنه ليس بالأمر الذي يرضى به الكل ويطمئن إليه الجميع . فلذا آثرنا أن نستدل على القضية بما هو من عالم القرآن ونابع من ثقافته الغراء.

إن عالمية رسالة القرآن كانت معروفة منذ الفترة المكية عبر آيات كثيرة تنوف على ثلاث مائة وخمسين آية منها: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[1] فكانت مبادئه وتوجيهاته موجهة للجميع[2]: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾[3] وكانت تعاليمه وأحكامه متجهة إلى الكل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[4] ودام بكثافة قرآنية أكثر إصرار القرآن على عالميته

---

١) الفرقان، ٢٥/١.

٢) أحمد محمد علي الإمام، **هيمنة القرآن وعالميته وخلوده، مجلة نهج الإسلام –سوريا**، العدد ٦٧-٦٨، ذو الحجة ١٤١٧، نيسان ١٩٩٧، ص ٥٤.

٣) النساء، ٤/٥٨.

٤) النساء، ٤/١٠٥.

عبر كلا قسميه المكي (مخاطبا غالبا ب"يا أيها الناس") والمدني (مخاطبا غالبا ب"يا أيها الذين آمنوا" كما سنذكر). أعلن القرآن ذلك ببيان مؤكد له إيقاع بالغ وإيحاآت كثيرة في شتى السياقات وبشتى المناسبات والملابسات (وسيأتي ذكر البعض منها) فلا لبس ولا غموض ولا خفاء ولا غطاء على عالمية القرآن ولكن رغما من ذلك ترى بعض الناس ينكر عالمية القرآن من خلال أحكامه فلنضبط موقف هذا المنكر حتى نكون منه على بينة من الأمر:

فالذي ينكر عالمية القرآن إما أن يكون منكرا للقرآن أو مؤمنا به. أما المنكر فللكلام معه مجال آخر وأما المؤمن به فنقول له كن صريحا جريئا لا تخادع ولا توارب[1]. فإن كنت تؤمن بالقرآن عن صدق قلب وإخلاص نية ففتش عن نفسك هل ترى أنك تكون من المؤمنين بالقرآن مع إنكارك لنصوص كثيرة منه تنوف على خمسين آية تدل على عالمية القرآن بصراحة ووضوح، وبلا لبس ولا غموض؟ ولا مسوغ لإنكارك إياها أو تأويلها تأويلا باطلا لا يرضاه الله ولا رسوله سوى أنك تحاول أن تُرضِي بذاك بعضا من سادتك في التفكير أو ترضي نفسك بقبول فكرها الذي ترى أنه الأقوم الأصوب لموافقته مع آراء العصريين. وثانيا إنك إذا أنكرت عالمية أحكام القرآن بليّ أعناق جميع تلك النصوص هل تعلم أنك تكون واحدا من اثنين إما أن تقول إن القرآن لا يتدخل في الأحكام أبدا وهو إنما بيّن العقائد وشرح شيئا من الأخلاقيات فقط فهذا

---

١) التوارب: بمعنى المواربة وهي المخاتلة والمخادعة.

أيضا فرية بلا مرية ومن بداهة البطلان بمكان لكثرة النصوص التي تبين الأحكام في القرآن حيث إن آيات الأحكام في القرآن تقارب عشرين بالمائة.

وإما أن تقول حيث رأيت أن لا مهرب من النصوص لكثرتها ووضوحها في الدلالة على عالمية القرآن، وعدم إمكان تأويلها ولي كلها، نعم إن القرآن عالمي لكن بعقائده وأخلاقياته لا بأحكامه وفقهه.

فنقول هذا الزعم أيضا لا يقل عن الأول ضعفا وسخافة وعدم استناد إلى منطق سديد وفهم رشيد لأن ما يدل على عالمية القرآن مطلق متجه إلى جميع القرآن لا إلى بعضه حتى يتيسر هذا الفرق والتمييز.

وإما أن تقبل أن في القرآن أحكاما متجهة إلى توجيه الحياة ولكن تقول غالب تلك الأحكام مضت فترتها التي كانت تعمل بها ورثى عليها الزمن وأبلاها الدهر بعد وقوع تلك التحولات العظيمة في مسيرة الحياة الإنسانية.

فنقول فحينئذ أيضا تكون واحدا من اثنين إما أن تقول: إن الله لم يعلم ما سيقع في المستقبل من تلك التحولات الجذرية في السياسة الإنسانية وما إليها. فلم يستطع أن يضع له أحكاما تسايره وتوائم مجتمعاته بل إنما وضع أحكاما لعصر النزول الذي كان يعلمه فقط.

فنقول هذا أولا جهل عظيم أسندته إلى الله تعالى يتنافى مع ألوهيته على الإطلاق تعالى الله عما تقول علوا كبيرا وثانيا مكابرة وتعام

عن جميع ما يمتلكه القرآن من معايير وقيم تصلح حكما وموجهة للجميع[1] أما ترى أن القرآن حافل بالمبادئ السامية والمثل العليا والقيم الأخلاقية التي تصلح لكل زمان ومكان[2] كما يشير إلى ذلك هذا الإعلان الرباني: **"قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا"** .

وإما أن تسند البخل وقلة الرحمة إليه سبحانه حيث إن عدم إنزاله لما هو مفيد ونافع مع علمه به يستلزم البخل وعدم الرحمة بعباده لا غير مما يتنافى مع رحمته ورأفته بعباده المؤمنين تعالى الله عما تقول علوا كبيرا.

وإما أن تقول إن عدم إنزال الله سبحانه لأحكام تكون خالدة على وجه العصر كله لا يتنافى لا مع رحمته ولا مع علمه، لأنه غير ممكن أن يكون هناك نصوص تستوعب حركة البشرية كلها بما فيها من تلك الأدوار المتضاربة المتعارضة والمستويات المتخالفة المتناقضة وعدم إنزال غير الممكن لا يكون لا جهلا ولا بخلا كما أن عدم القدرة على غير الممكن المطلق -لا النسبي- لا يعد عجزا.

فنقول هذا تفلسف عقلي محض ليس هناك أي دليل على ما قلت فضلا من أننا نرى أن كثيرا من الأمور لا يعفي عليها الزمن أبدا كحسن العدل والرحمة وقبح الظلم والفتنة. فكيف لا يكون ما أنزله الله من الأحكام من هذا القبيل؟ علما منا أن في إنكار استمرارية بعض أحكام

---

١) أحمد الإمام، المصدر السابق.

٢) عبد الحكيم سرور، إنسانية الإسلام، مجلة الجديد- مصر، العدد ٢٦، فبراير ١٩٧٣، ص ٥٢.

القرآن تغافلا وتعاميا عن أمور كثيرة فصلناها بتوفيق الله تعالى في كتابنا **عالمية القرآن حضارة ورسالة** فليراجع. ونرى أن أعظم الأسباب لهذا الإنكار الأرعن هو التغاضي عن هذه الأمور أو الجهل بها.

إذا لاحظنا موقع القرآن ككونه آخر رسالات الله إلى الناس وخاتم الكتب الإلهية ونهاية الوحي الرباني النازل من سماء الربوبية إلى أرض البشرية وككونه آخر التعاليم الإلهية الملقاة عن طريق الوحي إلى خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم وككونه وحيا أوحي إلى النبي المبعوث للناس كافة إذا لاحظنا هذه الأمور كلها علمنا لتوّنا أن هذا القرآن نزل من يوم أن نزل يخاطب جميع البشر على جميع المستويات في جميع الأزمنة المتتالية إلي يوم القيمة وفي جميع الأمكنة على وجه البسيطة من غير فرق بين زمان وزمان أو مكان ومكان أو جنس وجنس أو مجتمع ومجتمع أو مستوى ومستوى - كما أسلفنا ذلك- بل الكل متساو في كونه مخاطبا لخطابات القرآن المقدسة ومسؤولا أمام تكاليفه النيرة سواء منها العقائدية أو الاجتماعية: السياسية والاقتصادية والقضائية والجنائية، وسواء منها ما يتعلق بتنظيم العبادات أو تنظيم المعاملات أو تنظيم الأخلاق أو تنظيم الحقوق أو تنظيم سائر شؤون المجتمع فهو المهيمن على الزمان والمكان والمتغيرات بما يمنحه من وعي كامل للوجود الكوني وحركته وعلاقاته إنه وعي الكون كله بما فيه مدركا بكلمات الله فلا يمكن للماضي أو الحاضر أو المستقبل أن يحيط بوحي الكتاب مطلقا وإنما يأخذ منه ما يستدعيه عصره بنسبية

الظرف التاريخي ومتعلقاته الاجتماعية والحضارية وعبر طرائق فكره[1] ولقد جاء هذا القرآن حينما بلغت البشرية سن الرشد العقلي فجاء كتابا مفتوحا لجميع العقول لا في عصر النزول فقط بل مستمرا في جميع الأزمان لمقبل الأجيال، شاملا لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل بتغير الأزمان والمجتمعات، مستعدا لتلبية الحاجات المتجددة أيضا التي يعلمها خالق البشر وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير[2] ومن هنا تأتّى لبعض العلماء أن يشبه القرآن بالكون الكبير الذي نعيش فيه- لفسحة جوانبه ووفرة معلوماته وكثرة معارفه وغزارة مواده وكمال مداركه ونصوع براهينه وسعة خطاباته وثراء مسائله وتنوع مضامينه وتكثر مفاهيمه وتوفر معانيه وشمول نظرته وتناوله لقضايا الدنيا والأخرى جميعا فهو الكون الكبير المعنوي يضارع الكون المادي الذي يفوت تعداد جوانبه الحصر والعد.[3]

نعم إنه كما قلنا في كتابنا **ثراء المعنى في القرآن الكريم**: "كتاب حكيم يحتوي على عجائب لا تنقضي مدى الدهر ويشتمل على غرائب لا تنفد عبر العصر، كنوزه محشوة من الكرائم وخزائنه مفعمة من النفائس...فوائده غير محدودة، وزوائده غير معدودة، ومدلولاته ومعانيه

---

١) طه جابر العلواني، مدخل كيف نتعامل مع القرآن لمحمد الغزالي، الطبعة الأولى، فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٩١، ص ٥.

٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، الطبعة الثانية عشرة، بيروت ١٩٨٦، ج ٤، ص٢٤٠١.

٣) انظر محمد الغزالي، **كيف نتعامل مع القرآن**، ص ١٠١.

غير محصورة، وجوه دلالاته متكثرة، وأنواع إشاراته متوفرة، وعباراته خميصة من الألفاظ، بطينة من المعاني، حوى على جميع وجوه المحاسن، ونظف أذياله المقدسة عن جميع الأدناس، لم يتعارف يوما ما مع المساوئ والنقائص، ولم يتنكر دهرا ما شيئا من الفضائل والمناقب، لم يذكر في مجلس ما إلا وفاح منه جميع نفحات الهدى، ولم يمر بريقه في محفل ما إلا وعلا عليه جميع أنوار الخير والتقى، فإن شئت الهدى أتيته، وإن أردت العلم مضيت إليه، وإن عزمت على تحقيق العدل لازمته وإن قصدت الرشد والرشاد لازبته، كيف لا وهو كلام ربنا القدير المتعالي وخطاب مولانا العزيز الخلاق."[1]

ب- من الناحية النقلية

ثم إن الأدلة النقلية التي تدل على عالمية القرآن يمكن أن نقسمها إلى قسمين أدلة الكتاب وأدلة السنة فلنذكر الكل مستقلا:

١- الكتاب

الآيات الدالة على عالمية القرآن من مثل قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾[2] كثيرة، ولو حاولنا أن نستقصي جميع تلك الآيات لبعدت

---

١) محمد خليل جيجك، **ثراء المعنى في القرآن الكريم**، دار السلام، الطبعة الأولى، القاهرة ١٤١٩/١٩٩٩، ص ١٥.

٢) يونس، ١٠/٥٧.

بنا الشقة. فلنكتف الآن بذكر أرقام بعض تلك الآيات في الهامش[1] وسنذكر جملة أخرى فيما بعد إن شاء الله تعالى وقد ذكرنا أن عدد الآيات الدالة على عالمية القرآن تزيد على ثلاث مائة وخمسين آية.

إن تلك النصوص القرآنية تصرح وتعلن بعالمية القرآن معنى وخطابا و رسالة وحضارة وتشريعا بلا لبس ولا غموض ولا خفاء ولا غطاء. فإذا لم نعوِّد أنفسنا على ليّ أعناق النصوص وفق هوانا وإذا ما تعاهدنا مع أنفسنا ألا نفارق عن الحق مهما كان وفي يد من كان فإننا سنجد قضية عالمية القرآن قضية مفروغة عنها، قضية بدهية لا تحتاج إلى تفصيل و بيان اللهم إلا للذين ينكرون ضوء الشمس لما على أبصارهم من الغشاوة أو ران على قلوبهم من الصدأ والغباوة:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ❖ وينكر الفم طعم الماء من سقم

فهناك عديد من الآيات يعلن أن هذا القرآن ذكر لجميع العالمين: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[2] فإذا ما حاولنا أن نستنبط - وحق لنا ذاك- من خلال التعابير القرآنية وألفاظها مدعانا حول عالمية القرآن وجدنا ذلك سهل المساغ، لين المقاد، طوع القلم فإن تلك الآي الأربع التي

---

١) انظر: البقرة، ١٨٥/٢، النساء، ١/٤، ٧٩، ١٧٠، ١٧٤، الأعراف، ١٥٨/٧، يونس، ٥٧/١٠، ١٠٨، ٩٩، ١٠٤، ١٠٨، يوسف ١٠٤/١٢، الإسراء، ٨٩/١٧، ٩٤، ١٠٥، ١٠٦، الأنبياء ١٠٧/٢١، الحج، ١/٢٢، ٥، ٢٧، ٤٩، ٧٣، الفرقان ١/٢٥، ٥٠، ٥١، ٥٦، الأحزاب، ٤٥/٣٣، ٤٦، سبإ، ٢٨/٣٤، فاطر، ٢٤/٣٥، ص ٨٧/٣٨، القلم ٥٢/٦٨، التكوير ٢٧/٨١،

٢) يوسف، ١٠٤/١٢، ص، ٨٧/٣٨، القلم، ٥٢/٦٨، التكوير، ٢٧/٨١.

تصرح بأن القرآن ذكر للعالم أجمع إنما أتت: أولا - في صورة الحصر [1] والجملة بهذه الصورة الحصرية تنفي في هذا الصدد عن القرآن كل صفة تنافي عالميته وتجعل عالميته منصوصة عليها بلا امتراء ولا ارتياب.

ثانيا- إن تذكيره ومن ثم عالميته إنما هي باعتبار الرسالة التي تؤديها إلى الإنس والجن فتصلح من خللهم وتزيل من دغلهم [2] كما تنبئ عن ذلك مادة الذكر أيضا فإن اللفظة تعنى أن القرآن ذكر يذكر الناس والجان ما يحتاجون إليه فردا وأسرة ومجتمعا ودولة في تنظيماتهم واتجاهاتهم و في مادتهم ومعناهم وفي أولاهم وعقباهم لا أنه ذكر بمجرد كونه ألفاظا تتلى في بعض المناسبات الإسلامية ويترنم بها في بعض الأيام الدينية أو تذكر في المواسم والطقوس الدينية فحسب لا صلة لها بالحياة وتوجيهها وترشيدها وإنارة سبيلها فإن هذا الكيان الجاف المنكمش - مهما توافق مع الأديان الأخرى- لا يتوائم [3] مع طبيعة القرآن وهديه أبدا.

ثالثاً- إن صيغة العالمين بجمعيتها وتعريفها باللام المعرفة تدل في العربية على معنى الاستغراق [4] كما ذكروا أن من صيغ العموم الجمع المعرف باللام مع أنه أيضا مما لا ريب فيه على كل من لديه أدنى إلمام

---

١) محمد الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية، تونس ١٩٨٤، ج١٧، ص ٣١٠.

٢) الدغل بفتح الغين: تدخل في الأمر مفسد.

٣) يتوائم: يتوافق.

٤) المصدر السابق، محمد حسين الطباطبائى، **الميزان في تفسير القرآن**، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤، ج ١٤، ص ٣٣١.

بالعربية أن للفظة "عالم" مفرد العالمين أيضا دلالة صريحة واضحة بلا تكلف أو تعسف على العموم فإن معناه كل ما يعلم به وجود الصانع من كل ما في الكون فإذا جمع بالواو والنون - كما هنا- يكون خاصا بالعقلاء من الإنس والجن أجمعين . فإذًا تدل هذه اللفظة "للعالمين" أيضا على أن القرآن ذكر لجميع العقلاء من الإنس والجن جميعا بلا تقييد بزمان أو مكان أو طبقة أو جنس. فادعاء أن القرآن خاطب قطاعا خاصا من التاريخ أو أتى بأحكام خوطب بها قطاع خاص من الناس - حتى ولو ادعوا ذلك على بعض الأحكام - فرية بلا مرية طالما لم يأت أربابه بالدليل من الكتاب والسنة على مدعاهم. وأنى لهم ذلك؟؟

ذكر لهم: يذكرهم بوجهة الصواب في دينهم ودنياهم، يذكرهم بما يصلح حالهم فرادى وجماعات ؛

ذكر لهم: يذكرهم الحكمة ويزكيهم ويرشدهم في جميع اتجاهاتهم الفردية والاجتماعية: العلاقات الثنائية والملابسات الأخلاقية والصلات السياسية ؛

ذكر لهم جميعا: بلا تفريق ولا تمييز بين غنى أو فقير، بين شريف أو وضيع، بين عالم أو جاهل، بين فاضل أو خامل، بين أسود أو أبيض، بين عربي أو عجمي ؛ بين باد أو حاضر. بين متطور أو متخلف. بين ابتدائي أو متحضر ؛

ذكر للكل في كل زمان ومكان وعلى كل حال وفي كل مستوى وتجاه كل حكمة وهداية وبر واستقامة مادية أو معنوية يهتدي إليه

المهتدون ويضل عنها الغافلون الضالون! فدلالة على كون القرآن ذكرا في جميع تلك النواحي أطلق الذكر في الآيات ولم يقيد بأي مقيد كما هو سياسة القرآن في الدلالة على العموم وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

وإلى جانب تلك الآيات هناك آيات أخرى أيضا تصرح بعالمية القرآن من غير التباس ولا اشتباه من مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[1]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾[2]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[4]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾[5]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا﴾[6]، ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا﴾[7]، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلا

---

١) البقرة، ٢/٢١، ١٨٥.

٢) يونس، ١٠/١٠٨.

٣) الفرقان، ٢٥/١.

٤) الأنبياء، ٢١/١٠٧.

٥) النساء، ٤/١٠٥.

٦) الإسراء، ١٧/٨٩.

٧) الكهف، ١٨/٥٤.

مُبْطِلُونَ﴾[1]، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2]، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[3].

كل هذه الآيات تجعل الناس على عمومهم من غير تقييد بزمان دون زمان أو مكان دون مكان أو مجتمع دون مجتمع أو مستوى دون مستوى تجعلهم جميعا محلا ومناطا لنزول القرآن والإنذار به ومخاطبا مكلفا بجميع ما ورد فيه من الأوامر والنواهي ومسؤولا عما ورد فيه من التكاليف والأحكام من غير تقييد بأي أمر ما وكذا ذكرت الأمثال وصرفت ؛ وقصت القصص وضربت لأن يعتبر الكل بها ؛ كما تنص تلك النصوص أن الرحمة المهداة إلى البشرية من قناة النبوة بوساطة القرآن رحمة عامة لجميع البشرية كافة مؤمنيها وكافريها : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4] فانطلاقا من هذا رجح الطبري (ت. ٣١١هـ) رحمه الله حينما فسر آية ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أن الناس (المدلول عليه بكلمة العالمين) تشمل المؤمن والكافر[5]. فلولا التنصيص على عالمية القرآن و جعل خطابه فوق الزمان والمكان لما كان

---

١) الروم، ٥٨/٣٠.

٢) الزمر، ٢٧/٣٩.

٣) الزمر، ٤١/٣٩.

٤) سبأ، ٢٨/٣٤.

٥) محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آى القرآن**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨، ج ١٠، ص ١٠٦.

للإتيان بتلك اللفظة الدالة على العموم بهيئتها وجوهرها معنى طيلة ما كانت الألفاظ المفيدة للخصوص التي تكون بديلة عنها موجودة في العربية بوفرة وكثرة.

ثم إن هناك كلمات وتراكيب وصيغا أخرى من الألفاظ والتراكيب والصيغ القرآنية تخاطب الناس عامة بلا تقييد بزمن أو صنف أو طبقة أو جنس أو مستوى.[1] كما يسترعى أنظارنا من هذه الناحية خصيصا أن القرآن يتوخى في جمل خطاباته وجميع تعابيره وكل تراكيبه العموم دون الخصوص والإطلاق دون التقييد ما وسع لذلك المقام والمرام. فإذا ما فرض أن القرآن خير بين أسلوبين أحدهما خاص أو مقيد و الآخر عام أو مطلق اختار المطلق أو العام مطلقا، فانطلاقا من هذا المغزى الهام قلما ترى في القرآن المخصصات والمحددات كأمثال الأمكنة المحددة أو الأزمنة الخاصة أو الأشخاص المعينة أو الأعراف والتقاليد المختصة أو الأحوال الخصوصية التي لا يكون فيها درس أو عبرة أو حكمة للجميع وإذا ما وقعت حاجة أثناء البيان القرآني للتخصيص

---

١) إن القرآن يتجنب ما أمكن عن تلك الدوال الخصوصية التي تخص معنى اللفظة بأمر خاص أو فرد خاص أو مكان خاص أو مجتمع خاص أو طبقة خاصة أو نحوها من الخصوصيات. وهذا من أدل الدليل على عالميته ومن هنا تجد الألفاظ العامة مستعملة في القرآن بكثرة كالموصول العام ولفظة قوم النكرة والجمع المعرف باللام والنكرة في سياق النفي وأمثالها من ألفاظ العموم حتى إن بعضا من العلماء أفرد الألفاظ العامة في القرآن بالذكر فصار كتابا حافلا قيما في بابه منها **تلقيح الفهوم في صيغ العموم** لخليل بن الكيكلدا العلائي.

بصفة أو نحوها فإنما ينتقى القرآن منها أيضا تلك الصفات العامة التي خصوصيتها أقل كالمؤمنين والمتقين والصالحين والكافرين والمنافقين والغافلين والضالين وأمثالها مما لا يخص بجنس أو طبقة دون أن يقيد بالحجازيين أو المكيين مثلا مما يضيق دائرة دلالة اللفظ ودون أن يخصص اللفظُ فالحكمُ بأبي بكر أو علي رضي الله عنهما مثلا مما يخص الأمر مقتصرا على واحد لا يتعداه. ومن هنا ترى أن ألفاظ وتراكيب الآي النازلة لسبب خاص وحول قضية خاصة وفي شأن شخص خاص جردت من عناصر التخصيص والتقييد ما أمكن ذلك ولم يلتبس الأمر التباسا فمثلا انظر إلي آيات الإفك فرغما من أنها نزلت في أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها بإجماع[1] مفسري أهل السنة[2] لا ترى في تلك

---

١) محمد بن علي الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٩٦٤، ج ٤، ص ١٢، ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج ١٨، ص ١٨٣.

٢) انظر تفسير الطبري، ج ١٨، ص ٨٦-٩٥، محمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥، ج ١٢، ص ١٩٧-٢٠٧، إسماعيل بن كثير أبي الفداء، **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، بيروت ١٩٦٩، ج٣، ص ٢٦٨-٢٧٦، علي بن محمد بن إبراهيم الخازن، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية، مصر ١٩٦٤، ج ٤، ص ١٢، عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور في التفسير المأثور**، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٣، ج ٦، ص ١٤٠-١٦٢، محمود شهاب الدين الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٨٥، ج ١٨، ص ١١١-١١٨. حتى إن بعضا من محققي علماء الشيعة أنفسهم كالطبرسي لم

الآي تحديدا بالاسم والنسب للمفترى عليها وكذا لا ترى تخصيص أسماء الذين وقعوا في فتنة الإفك من الأفاكين سوى التعريض بهم بذكر فعلتهم الشنيعة تلك بأن قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ... وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾[1] من غير تخصيص لأي واحد من الجماعة أو الفرد المتولي لكبر الإفك بالذكر.

وكذا قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾[2] فمع أن جمهور المفسرين ذكروا أنها نزلت في شخص خاص وهو الوليد ابن عقبة[3] لكن لا ترى في ألفاظ الآية أي مخصص أو محدد من اسم الشخص أو مكانه أو الحادثة التي كان هو البطل فيها والتي هي أيضا تحدده بعض التحديد. فلا ترى في القرآن التخصيص بإحدى

يذكر في قصة الإفك سوى اسم أمنا عائشة رضي الله عنها (راجع الفضل بن الحسن الطبرسي، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، دار الفكر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٦، ج ٧، ص ٢٠٤-٢٠٦) كما نجد الطباطبائي لم يذكر حول من نزلت فيها آيات الإفك سوى قول ضعيف لبعض الشيعة مرضه هو نفسه ولم يعول عليه. (راجع محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، مؤسسة إسماعليان، الطبعة الثانية، ١٩٧٢، ج ١٥، ص ٨٩-١٠٣.)

١) النور، ١١/٢٤.

٢) الحجرات، ٦/٤٩.

٣) انظر عبد الله أبي ناصر القاضي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، مكتبة الحقيقة، إستانبول ١٩٩١، ج ٤، ٢٧٢، ابن كثير، ج ٤، ص ٣٠٨، الشوكاني، ج ٥، ص ٦٢، محمد جمال الدين القاسمي، **محاسن التأويل**، دار الفكر الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨، ج ١٥، ص ١١٥.

المخصصات المذكورة طالما لم يلاحظ في تخصيصها أي درس أو أية عبرة أو أية فائدة ترجع إلى المخاطبين وتأتي لهم بأحكام مستجدة كما في قصة طلاق زيد لزينب رضي الله عنهما وزواج رسول الله منها.

وهكذا تكثر الأمثلة من الآي التي نزلت لسبب خاص أو في شخص خاص ولم يقع التحديد في ألفاظها من أي وجه ومن هنا اتخذ علماء الفقه وأصول الفقه قاعدة هامة لهم وهي: **أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.**

وأما شبهة أن يكون التعميم بالنسبة للعرب فقط فأوهن من نسج العنكبوت بعد ما ذكرنا من تلك الأدلة القاطعة والنصوص الصريحة من مثل كلمة **إن هو إلا ذكر للعالمين** الناصة في أن التعميم بالنسبة إلى الإنس والجن جميعا لا بالنسبة للعرب فقط.

فهذا الإطلاق عن التقييد في آي الكتاب الجليل أيضا من أهم الدلائل على عالميته وأنه لا يخص بزمان أو مكان أو بقعة أو طبقة وبهذا يفسح المجال لخطاب القرآن ومن ثمه لعموم معانيه وشمول أحكامه إلى حد كبير فتجعله فوق الزمان و المكان والمجتمع وسائر المحددات. وكل تلك الآراء الكثيرة والتوجيهات الواسعة والاجتهادات البالغة والاستنباطات الجزيلة من القرآن في شتى المجالات العلمية من المجالات الفقهية والكلامية والأخلاقية والفلسفية والاقتصادية والتربوية والمذهبية والنفسية والسياسية والاجتماعية لم تكن إلا من عموم ألفاظه وأساليبه وعالمية بيانه ومغازيه وجامعية مضامينه ومعانيه.

فإذا ما لاحظنا جميع النصوص القرآنية بترابط بعضها مع بعض وجعلنا تلك الكلمات والتراكيب والصيغ التي تفيد العموم في محل الاعتبار- وهي أصدق شاهد وأنصع دليل على ما تعرب عنه الألفاظ وتدل عليه من المعاني والمقاصد والمفاهيم- وعلمنا جيدا أن أصدق التفاسير لكتاب الله هو نفس كتاب الله فهمنا قطعا وأدركنا يقينا أن عالمية القرآن مما لا ينبغي أن يماري فيها اثنان أو ينتطح فيها عنزان. ولا يرتاب فيها عاقل ناصح لكتابه ولا يمتري فيها حازم صادق مع ربه ما لم يعرقله عن التفكير الحر السليم الصحيح تلك الأغراض اللئيمة الدميمة والنوايا السيئة الذميمة.

٢-السنة

نرى أن قضية عالمية القرآن حيث كانت من البداهة بمكان بحشود تلك الآيات الكثيرة الموجودة في القرآن ما ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة كما ذكر بعض الأمور الأخرى التي تجدها في الجوامع الصحاح بكثرة ووفرة. واكتفي في هذا الموضوع ببيان عالمية رسالة النبي صلى الله عليه وسلم فإن عالمية الرسالة وعالمية القرآن مستلزم كل واحد منهما للأخرى لأنه لا يتصور عالمية رسالة بدون عالمية كتابها كما لا يعقل عالمية الكتاب بغير أن يكون النبي مرسلا إلى كافة الناس. وكل هذه من البداهة بمكان. أما الأحاديث التي تدل على عالمية الرسالة فكثيرة شهيرة فلذا قال ابن عطية الأندلسي وابن حيان إنها ثابتة

بالأحاديث المتواترة[1] وندع الحكم بالتواتر عليها إلى أربابها ونكتفي بذكر جملة من الأحاديث:

روى البخاري: "**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**"[2] ورواية مسلم: "**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود...**"[3]

قال القاسمي في شرح الحديث: قال مجاهد: أي يعني الجن والإنس وقال غيره يعني العرب والعجم والتحقيق في معنى عموم إرساله وشمول بعثته هو مجيئه بشرع ينطبق على مصالح الناس وحاجاتهم أينما كانوا وأي زمان وجدوا مما لم يتفق في شرع قبله قط ولهذا ختمت النبوات بنبوته عليه الصلاة والسلام.[4] وفي رواية أخرى لمسلم: "**فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت الأرض لي مسجدا وطهورا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**"[5]، وروى مسلم أيضا: "**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي**

---

١) انظر ابن عطية، المحرر الوجيز، ج ٤، ص ١٩٩، وابن حيان، البحر المحيط، ج ٦، ص ٤٨٠.

٢) البخاري، التيمم/١.

٣) مسلم، المساجد ومواضع الصلاة/١.

٤) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ، دار إحياء الكتب العربية، ج ٧، ص ٤٩٥٨.

٥) نفس المصدر.

أرسلت به إلا كان من أصحاب النار"[1] يقول النووي (ت ٦٧٦/١٢٧٧) في شرحه: ففيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ... وقوله لا يسمع بي أحد من هذه الأمة أي ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيمة فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته. وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيها على من سواهما وذلك لأن اليهودي والنصراني لهم كتاب فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى.[2]

وإلى جنب تلك الأحاديث التي تدل صراحة أو رمزا على عالمية الرسالة المصطفوية ترى بعضا آخر من الأحاديث أيضا يدل على مكانة القرآن العالمية بصراحة منها:

يقول علي رضي الله عنه فيما رواه عنه الترمذي: **سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم يقول: "ألا إنها ستكون فتنة" فقلت ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: "كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ**

---

١) مسلم، الإيمان/٦٩.

٢) محي الدين أبو زكريا يحيى النووي، **شرح صحيح مسلم**، دار الفكر، بلا تاريخ، ج ١، ص ١٨٨.

سمعته حتى قالوا: "إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به)، من قال بـــه صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صـــراط مستقيم."[1]

لكن هذا الحديث تعقب عليه الترمذي وقال إنه حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حمزة الزيات وإسناده مجهول وفي حديث الحارث (هو وحمزة الزيات راويا الحديث) مقال. لكن ليس جميع مستندنا في قضية عالمية القرآن هو ما في هذا الحديث والتي سيأتي بعدها فقط حتى يفرح المنكرون ويقولوا لنا قطعتم الغصن من تحت أرجلكم. حيث لا يمكنكم أن تأتوا بحديث واحد من الجوامع الصحاح تثبتون به مدعاكم. فإننا قدمنا جملة من الأحاديث الصحاح ثم إن في كتاب الله لنا غنية من الأدلة وإنما نأتي بما من هذا القبيل من الأحاديث من باب المتابعة والاستئناس والإحاطة بما له صلة بالموضوع وإلا فقد أسلفنا أن البعض قد ذكر أن الأحاديث الصحاح في الموضوع تصل إلى درجة التواتر ثم إن الأحاديث مهما كثرت في موضوع ما هل تراها تحوز من قوة الاستدلال ما تحوزه آية واحدة فقط؟

روى الحاكم في مستدركه بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم إن هذا القـــرآن حبل الله والنور المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يزيغ فيستعتب ولا يعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد اتلوه فإن**

---

١) الترمذي، فضائل القرآن/١٤.

الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات أما إني لا أقـــول الم حـــرف ولكن ألف ولام وميم."[1]

روى الحاكم أيضا بسنده عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **" نزل الكتاب الأول من باب واحد على حرف واحد ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف زاجرا وآمرا وحلالا وحراما ومحكما ومتشابها وأمثالا فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عمـــا نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله واعملوا بحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا آمنا به كـــل من عند ربنا"**[2]

روى ابن حبان بسنده عن أبي شريح الخزاعي قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **" أبشروا وأبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: "فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدا"** [3]

ويروى ابن حبان أيضا بسند آخر عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"القرآن مشفع وماحل مصدق، من جعله أمامـــه قـــاده إلى الجنة ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار".**[4]

---

١) محمد بن عبد الله الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٠، ج١، ص ٧٤١-٧٤٢.

٢) نفس المصدر، ج١، ص ٧٣٩.

٣) محمد بن حبان البستي، **الصحيـــح**، تحقيق شعيب الأرناوط وحسين أسد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٤، ج ١، ص ٢٨٥.

٤) نفس المصدر، ج ١، ص ٢٨٦.

"ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه مـــن البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيمة"[1]

فبعد ما ذكرنا من كل هذه الأدلة القاطعة والحجج الدامغة نعود إلى التاريخانيين فنقول:

إن زاعمي تاريخانية القرآن لا تجد لهم من الأدلة شيئا يعتد به سوى أمرين اثنين أحدهما أسباب النزول وهو من أقوى أدلتهم وثانيهما نزعة ذات اتجاهين أحدهما التأثر بالغير و ثانيهما التفلسف العقلي فقط حول بعض ما نزل من الأحكام في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يحاولون أن يجدوا لبعض تلك الأحكام بعض الملابسات التاريخية التي تحدد واقعيتها - حسب مزاعمهم - بذلك العصر أو ما بعده من العصور القريبة منه. فكدليل على الأول مثلا ترى السائق الأكبر لهم على التاريخانية في بعض الأحكام مثل القطع في السرقة هو ما تأثروا به من النزعة الإنسانية ( ) ومن حقوق الإنسان المصطنعة فحينما ينكرونها إنما ينكرونها بما يرون أنها تتنافى مع النزعة الإنسانية وأنها مخالفة لحقوق الإنسان فيجعلون من تلك الحقوق المصطنعة بأيدي الذين هم أشد الناس ظلما وعدوانا وتعديا على حقوق الغير يجعلون منها حاكما مهيمنا على آيات الله وسنة رسوله وذلك هو الخزي المبين. (ولسنا كمسلمين معارضين لحقوق الإنسان مهما كانت وفي يد من كانت

---

١) مسلم، الإيمان/٦٩.

ولكنا نريد بهذا عدم نصح الغرب وعدم التزامه هو بما أسسه من المبادئ إذا لم تتوائم مع مصالحه الشعبية وهذا من اكبر أمارات النفاق ومخادعة الغير.)

وكدليل على الثاني مثلا من أهم أساطين هذه الفكرة **فضل الرحمن الباكستاني** الذي لا يزال العصرانيون يهتدون بسيره في كثير من اتجاهاتهم الحديثة. فهو حينما يحاول أن يبين الملابسات التاريخية لبعض من تلك الأحكام الذي يراه هو محددا بزمن النزول - كتعدد الزوجات وقطع السرقة- قاصدا من تلك الملابسات التاريخية بيان الأسباب المخصصة للحكم بتلك الفترة المحددة فتراه حينما يسرد وجهة نظره في القضية في بعض من كتبه لا يأتي بنقير ولا قطمير من الأدلة النقلية الملزمة أو الحجج المقنعة، بل يكتفي بتوجيهاته العقلية فحسب. ولا شأن لنا بالتوجيهات العقلية فقط في تفسير النصوص بعد وجود ما يعارضها ويفندها من النصوص وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم وعمل الأمة وإجماعها وبعد ما لم يوجد ما يؤيدها أيضا من تفسير أو عمل من القرون الأولى والذين اتبعوهم بإحسان.

علما منا أن التفلسف العقلي بدون النص إن كان مبررا كافيا لتحديد النصوص أو تقييد أحكامها ببعض الفترات التاريخية ورفع أحكامها فيما بعد من العصور التالية صار الإسلام نهبا لعقول المتفلسفين. فكل من جاء ورأى أن الصواب فيما ارتآه بفلسفته الموهة رفع شيئا من الأحكام إلى أن لا يبقى من الدين بقية، وهذا نفس ما يبتغيه ويرتضيه

الجهات العلمانية من التفسير الجديد للدين حسبما أوحت إليهم شياطينهم. ثم إن الأدهى الأمرّ من كل ذلك أن الذين ينصبون أنفسهم للدفاع والنفاح عن التاريخانية ليسوا أناسا آمنين موثوقين في دينهم وعقيدتهم حتى يؤتمنوا على ما يأتون به من التفسير الجديد لبعض النصوص بل جلهم على قلوبهم رين وفيها زيغ يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. ترى سيرة البعض الغالب منهم سيرة دنسة ملوثة وترى عقائدهم عقائد متحطمة بالية كما تراهم أذنابا غير أعزاء في أفكارهم واتجاهاتهم وميولهم للغرب الذي لا تزال تكن في صدرها أعظم الأحقاد على الإسلام وأهله. فكيف يوثق بمن هذه سيرته وسريرته في تفسيره وتأويله أهم النصوص حيوية وتأثيرا في حياة المسلمين في تفسيره حسبما أهدته إليه أهوائه وميوله لا دينه وخوفه من ربه.

نعم إننا لا ننكر أن في القرآن آيات نزلت لسبب خاص فيها ذكر لبعض الحوادث التاريخية التي لها صلة بزمان وقوعها أو الأشخاص التي كانت لهم علاقة وثيقة بها كما في آيات نكاح النبي صلى الله عليه وسلم لزوجة زيد بن الحارثة رضى الله عنه[1] أو آيات تحريم النبي صلى الله عليه وسلم بعض ما أحل الله له بسبب بعض أزواجه[2] ولكن إن تلك الحوادث وإن تقولبت في قالب من الخصوصية التي ترى أنها تخص زمنا معينا أو أشخاصا محددة أو حالة محددة- ربما تقتضي تلك الأسباب

---

١) انظر الآيات ٣٧، ٣٨ من سورة الأحزاب.

٢) انظر الآيات ١-٦ من سورة التحريم

تاريخانيتها على زعم زاعميها!- إلا أن كل واحد منها يدل على معاني ويشير إلى أحكام ويرمز إلى عبر ويومئ بدروس لا تخلق مدى الدهور ولا تبلى بكر العصور ولا غناء للإنسانية عنها أصلا وكفى كل هذا شاهدا عدلا في عالمية نصوص القرآن!

ونكتفي بهذا القدر في هذه الرسالة القصيرة ففيها كفاية لمن اعتبر.

ج – عالمية القرآن من الناحية المضمونية

أما عالمية القرآن من الناحية المضمونية: فان تاك أيضا باهرة وبارزة حيث إن ما قدمه القرآن للناس من تلك النظرة الشمولية إلى الكون والطبيعة التي تفتح على العقل و التفكير الإنساني آفاقا فسيحة إلى أقصى الحدود في النظر إلى الكون والطبيعة نظر فاحص متأمل في أسرارهما ومتطلب لوجه الاستفادة منهما وما قدمه من تلك المعاني الإنسانية النبيلة و الفضائل الأخلاقية الجزيلة والكمالات البشرية الجميلة الموجودة في الكتاب المجيد بكثرة وغزارة حيث أتى بها مجتمعة مصفوفا بعضها فوق بعض إبان نزوله من غير أن ينتظر فيما ابتكره من المعاني العالية وابتدعه من الفضائل السامية جهودا إنسانية ستبذل، أو تجارب بشرية ستتجمّع، أو قاعدة حضارية ستتأصل ومن غير أن يسبق له سابق حضاري أو رصيد ثقافي، مع أننا نعلم جميعا أن الكمالات التي وصل إليها الإنسان بمحض جهده وسعيه إنما وصل إليها نتيجة تجارب سابقة وجهود سالفة وخبرات غابرة ولكن القرآن المبين تراه قد أتى دفعة وفجأة ببذل وسخاء بهذه المجموعة من المعاني الإنسانية الشريفة التي هي أهم

مقومات عالميته والتي قلما تجد في جميع الأوساط البشرية فردا مستغنيا عنها أو جماعة غير محتاجة إليها، وقدم القرآن من خلال آياته وسوره إلى المحافل العالمية محاسن خلقية و فضائل بشرية وقواعد سياسية وضوابط اقتصادية وأسسا حضارية وآفاقا معرفية ونظرات شمولية إلى الكون والطبيعة ومقاربات فلسفية لم تحلم الإنسانية بجلها فردا فردا من قبل وأما مجتمعة فلم يكن لها نبأ و خبر بكلها.

من هنا نرى أن القرآن أحدث بمجموع تلك المفاهيم الجديدة التي تشكل صلب عالميته وتقوِّم هوية بنيانه الإنساني القشيب أحدث في الآفاق البشرية ثورات عجيبة وأتى في الأوساط الإنسانية بانقلابات عظيمة ويمكن أن نستخلص بعض تلك المعاني السامية والمفاهيم الرامية إلى الكمالات والفضائل التي لا غنى لأي من أبناء البشر عنها مهما تطور وتقدم والتي أنزلها القرآن إلى أرض البشرية أن نستخلصه في هذه العناوين التالية:

١- الحفاظ على الكرامة الإنسانية إلى أقصى الحدود طالما لم تنقلب إلى مظاهر سيئة مذمومة العواقب للفرد والمجتمع فقد أذاق القرآن بتلك التعاليم السمحة الإنسان المستهان المستضعف المغصوب منه كرامته وعزته طعم الكرامة النفسية ولذيذ العزة البشرية: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[1].

---

١) الإسراء، ١٧/ ٧٠.

ونرى هذه الحقيقة تتبلور- منعكسة إلى واقعيات الحياة- على لسان **الفاروق** رضي الله عنه حينما امتنع ابن **عمرو بن العاص** رضى الله عنه وهو والي مصر وفاتحها وفي قمة مجده وعزة سلطانه عن توفية القصاص من نفسه لأجل صفعة صفعها أحد القبطيين حيث قال الفاروق رضي الله عنه: **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا.**

٢- استخلاص العبودية لله وحده والإنقاذ من عبودية البشر فقد أهدى القرآن لذلك الإنسان الذي ضل عن سبل الهدى وتاه في متاهات الشرك والعبودية لغير الله واستذل بأبشع طرق الاستذلال والاستعباد لغير الله، أهدى له أفضل وسائل النجاة والخلاص عن عبودية البشر وهو عقيدة التوحيد التي لا تعرف للبشر ربا غير الله ولا تعطى أية فرصة لأن يتخذ بعض الناس بعضهم أربابا من دون الله: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[1] ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۞ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾[2].

وقد رأينا هذه الحقيقة العظيمة الناصعة التي يهديها الإسلام للبشرية جمعاء تتجسد في الحياة الواقعية على لسان **ربعي بن عامر** رسول

---

١) آل عمران، ٣/٦٤.

٢) آل عمران، ٣/٧٩-٨٠.

سعد بن الوقاص رضي الله عنهما قائد الجيش الإسلامي إلى الفرس حينما التقى مع القائد الفارسي **رستم** وهو بين حشمه وجشمه[1] وفي ذروة زهوه[2] وكبريائه قال له: **إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.**[3]

٣- إغاثة المظلوم ونصرة المستضعف وحمايتهما والنصفة لهما من الظالم والقوي: فقد أتاح القرآن ملجأ شرعيا هاما لجميع المستضعفين والمظلومين في أنحاء المعمورة وجعل الدفاع عن المظلوم والمستضعف من وظائف المسلمين فردا وجماعة. وانطلاقا من هذا أخذ الدفاع عن المظلوم -لا عن دمه فقط بل عن دمه وعرضه وكرامته- محلا رئيسيا له في الفقه الإسلامي تحت عنوان **باب الصيال** ويرى الفقه الإسلامي انطلاقا من النصوص حول إغاثة المظلوم الثابتة في الكتاب والسنة التي سنذكر بعضا منها أن المسلم إذا لم يدافع عن المظلوم يعصى ويأثم ويستحق العذاب.

فمن تلك النصوص:

﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن

---

١) الحشم: خاصة المرء الذين يغضبون له وعياله وقرابته؛ والجشم: الثقل.

٢) الزهوّ: الكبر والتيه والفخر.

٣) إسماعيل أبي الفداء ابن عمر بن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله التركي، الطبعة الأولى، دار هجر، إمبابة، ١٤١٨/١٩٩٨، ج ٩، ص ٦٢٢.

لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[1]، ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾[2]، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[3]، ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾[4]

كما نجد تلك الحقيقة الناصعة والسمة الحضارية القرآنية التي هي من أكثر الأمور تحريكا للعجلة الحضارية تتجلى كواقعة حياتية -لا مثالية تبقى بين الخياليات المرغوبة والأحلام الحلوة- على لسان الصديق رضى الله عنه في أول خطبته التي ألقاها حينما انتخب خليفة للمسلمين وهو كأول خطوة إجرائية في خلافته حيث قال: **أما بعد فإني وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.**[5]

٤- النظرة الشمولية الاستدلالية إلى الكون الحاضة على كثير من جوانب التفكير والمعرفة التي كان فيما مضى ولا يزال وسيكون فيما

---

١) النساء، ٤/٧٥.

٢) إبراهيم، ١٤/٤٢.

٣) هود، ١١/١٠٢.

٤) هود، ١١/١١٣.

٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٤١٥.

يأتي لها تأثير إيجابي أيما تأثير في اتساع الأفق التفكيري لبني الإنسان وانتهاجه سبل العلم والتطور والتقدم لا في الميادين المادية فحسب بل في الميادين المادية والمعنوية كليهما فلقد أحدث القرآن- كما أسلفنا الإشارة إليه- في المجالات التفكيرية إلى جانب الميادين الاعتقادية والاجتماعية والأخلاقية انقلابات عجيبة أحدثت أصداء عالمية عظيمة تطن في أذن التاريخ عبر سيره الطويل بما قدم لعالم العلم والمعرفة من عقلية ناضجة واعية سببت توليد اتساعات شاملة وانفتاحات هائلة وفتح آفاق واسعة في العلم والمعرفة. وأهم عناصر تلك العقلية:

أ) الحض على السعي في طريق العلم والمعرفة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1]، ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2]، ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[3]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[4].

ب) والجد والجهد لعمارة الأرض وتسخير الطبيعة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[5] ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

---

١) طه، ١١٤/٢٠.

٢) النحل، ٤٣/١٦؛ الأنبياء، ٧/٢١.

٣) المجادلة، ١١/٥٨.

٤) الروم، ٢٢/٣٠.

٥) الملك، ١٥/٦٧.

بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1]

جـ) ومن الحض على النظر والتفكير فيما ينوف على ثلاثمائة آية في القرآن فقط، عدا السنة، النظر الذي قوامه وعماده الحرية الفكرية التي يتمتع بها المرء المؤمن تمتعا كاملا: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[2] ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

٥- **المعاني النبيلة و الفضائل السامية** المملوءة حيوية ونشاطا ونبلا إنسانيا لا تختص بأمة دون أمة والتي هي في أية حضارة كانت فهي كالروح للجسد فلم تخلو أية حضارة منها إلا وأذن بالرحيل ركبها وانهار بعد غير كثير بنيانها و حان في زمن غير طويل حينها ودمارها. لعمر الحق! إن القرآن أتى في باب الفضائل والمكارم وترسيخهما في المجتمع الإنساني وتشييد ذلك البنيان الإنساني وتحكيمه بروابط وأواصر خلقية اجتماعية لا مثيل لها ولا عديل ولا نظير لها ولا بديل فلقد أتى في هذا الباب بما لم يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق: حيث بث روح الإخاء والتعاون والتساند والتكافل بين جميع أبناء الأمة: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى

---

١) الحديد، ٢٥/٥٧.

٢) الروم، ٨/٣٠.

٣) الرعد، ٣/١٣.

﴿الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1] كما أمر بالإحسان ونشر الفضيلة والعدل بين جميع طبقات الناس ونهى عن جميع المنكرات والفحشاء: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2] وكفي بهذين النصين في هذا الباب شاهدا عدلا.

٦- عناية الإسلام البالغة بحماية الحقوق ورعاية الكرامات حيث حرم الإسلام- بصورة حاسمة- لاهتمامه البالغ بحماية كرامة الإنسان- حتى ولو في غيبته- حرم التطاول على عرضه وكرامته وانتهاك حقوقه ومن هذه الجملة حرم اغتيابه وحسده وحقده وشتمه وذمه وقذفه وإهانته وضربه وكل ما يؤذيه -بدون استحقاقه لذلك- حرم جميع ذلك شهودا وغيابا: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾... [3] فاهتماما بذلك ترى الإسلام جعل للقذف - الافتراء بالزنا على عفيف محصن - حدا أكبر من حد الخمر ثمانين جلدة لأن في القذف تلويثا لعرض الغير وانتهاكا لكرامته واعتداء زائدا على مكانته وخصيصا في تلك المجتمعات المتحفظة من الزنا.

٧- الأمن والأمان العام و السلام الكامل: من أهم مظاهره حقن الدماء وحفظ الأموال إن على المستوى الفردي أو على المستوى

---

١) المائدة، ٢/٥.

٢) النحل، ٩٠/١٦.

٣) الحجرات، ١٢/٤٩.

الجماعي فتأكيدا على ضرورة الحفاظ عليهما أتى في باب التشريع في كلا المجالين بما لا مزيد عليه من الأوامر الناهرة والقوانين الزاجرة ومن هنا حرم الربا والرشا وأكل أموال الناس بالباطل والغش وأوعد القاتل بالنار المخلد إلى جنب القصاص: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1]، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2]، وأتى بأثقل الجزاء لمن يسعى في الأرض بالفساد: ﴿إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3]

٨- **الأخلاقيات** التي أمر القرآن بها مما لا غنى للبشرية جمعاء عنها مهما كانت الظروف والشؤون تلك الأخلاقيات التي تغطى جميع صفحات الحياة ونواحيها من الصلات الأسرية إلى العلاقات الاجتماعية والدولية والدبلوماسية، إلى ملابسات المرء وسلوكياته فيما بين بني جنسه ككونه واحدا منهم، إلى معاملته تجاه متملكاته الحيوانية والجمادية. فالصورة الأخلاقية التي يقدمها القرآن للناس هي صورة إنسانية شمولية عالمية تحيط بجميع أفعال المرء ونزعاته وملابساته ومبادئه وقيمه وحبه ونفوره وأهوائه وأغراضه وعاداته وتقاليده. انظر إلى هذه الكلمة الربانية الفذة الجامعة: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي

---

١) النساء، ٤/٩٣.

٢) البقرة، ٢/١٧٩.

٣) المائدة، ٥/٣٣.

هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾[1] ، وما أروع وأشمل هذه النصيحة الربانية والموعظة الإلهية : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[2] ، وهل ترى كلمة أجمع في باب الفضائل ومحاسن الأخلاق من هذا النداء الإلهي الحكيم : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۞ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[3] .

ترى معي أن جميع هؤلاء المعاني والأمور والأخلاقيات التي ذكرتها كدلائل تدل على عالمية القرآن إنما هي مما لها علاقة وثيقة بالكيان الإنساني المطلق من غير تقييد بجنس أو تحديد ببقعة ولها صلة محكمة بالهوية الإنسانية العامة المطلقة إن في هذا القالب أو ذاك أو في هذه الصورة أو تاك أو من هذا الجنس أو من ذاك أو في هذه الهوية أو تيك أو في هذا المكان أو ذاك أو في الحال كان أو في المستقبل بلا تفريق وتمييز وبذاك يتجلى معنى هذه الكلمة الإلهية الحكيمة المدوية عبر العصور والقرون التي تطن في أذن التاريخ دوما : **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين.**

---

١) فصلت، ٤١/ ٣٤.

٢) الأعراف، ٧/ ١٩٩.

٣) لقمان، ٣١/ ١٧-١٩.

فإذًا لا ضير علينا من مزاعم أولئك المغرضين على الإسلام وأهله وأذنابهم المتملصين[1] إليهم المتملقين لهم بتاريخانية القرآن فإن الحقيقة أظهر من أن تخفى والشمس أبهر من أن تختفي فكيف تختفي الشمس عن العيون بإغماض الخفاش عينيها منها أو بإنكار الأعمش لها كما قال القائل قديما:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ❖ وينكر الفم طعم الماء من سقم

وبعد أن أسهبنا وأطنبنا - بالإضافة إلى حجم الرسالة - في الكلام عن عالمية القرآن رغم أننا وعدنا أن نوجز الكلام فيها فالآن نعود إلى صدد ما كنا فيه.

استكمالا لجوانب البحث نرى أن نذكر- قبل البدء بما نحن فيه- بعض تلك الأمور المتعلقة بكلمة "السورة" ووضعها الاصطلاحي ومن الله التوفيق والسداد.

---

١) المتملصين: المتخلصين.

obeikandl.com